برقية من هتلر لروميل: النصر أو الموت

الفصل الخامس عشر

obeikandl.com

obeikandl.com

بعد فشل الهجوم المضاد الألماني على التشكيلات البريطانية في القطاع الشمالي من منطقة العلمين ركَّز روميل جهوده للمحافظة على سلامة خط دفاعاته، وعلى منع القوات البريطانية من اختراقه، وقد قدَّر روميل أن محور الاختراق الرئيسي سوف يكون في أقصى الشمال؛ نظرًا لنجاح الأستراليين في إحداث نتوء في مواقع المحور، والوصول إلى الشاطئ؛ لذا قام على وجه السرعة في أول نوفمبر بتحريك الفرقة 21 بانزر إلى الشمال لتنضم إلى الفرقة 90 الخفيفة لمنع أي اختراق بريطاني من هذا الاتجاه.

وعندما اكتشف مونتجومري التحركات التي أجراها روميل، وقيامه بدفع احتياطيه إلى أقصى الشمال، مما كان يهدِّد خطته بالفشل قام بتغيير محور هجومه ليكون من منتصف القطاع الشمالي (من اتجاه تَبَّة كيدني) بدلاً من أقصى الشمال بجوار الشاطئ، وكانت أوامر مونتجومري لقوات الفيلق 30 والفيلق 10 المدرع تقضي بمواصلة الهجوم لاختراق دفاعات المحور بأي ثمن، وشدَّد على أنه في حالة توقُّف المشاة عن التقدُّم فعلى القوات المدرعة أن تشق طريقها، وتخترق المواقع التي تواجهها مهما تكبَّدت من خسائر، وفي ليلة 1/ 2 نوفمبر قامت الفرقة النيوزيلندية (من الفيلق 30) بالهجوم غربًا بمعاونة ضخمة من مدفعية الميدان، وبرغم نجاح الهجوم فإن اللواء 9 المدرع التابع للفرقة اصطدم عند وصوله إلى مدق سيدي عبد الرحمن بستارة قوية من نيران المدافع المضادة للدبابات الألمانية من عيار 88مم، مما أفقده معظم دباباته.

وعندما اندفعت الفرقة الأولى البريطانية المدرَّعة (من الفيلق 10 المدرع) يوم 2 نوفمبر إلى ساحة المعركة لنجدة اللواء 9 المدرع دارت معركة مدرعات عنيفة بين القوات المدرعة البريطانية والقوات المدرعة الألمانية حول (تل العقاقير) تكبَّد فيها الطرفان خسائر فادحة، وفي الوقت الذي كان فيه مونتجومري على استعداد لتحُّمل الخسائر حتى لو

بلغت 100٪ في سبيل تمكين القوات المدرعة البريطانية من اختراق خط دفاعات المحور، والوصول إلى الأرض المفتوحة تمهيداً لانطلاقها غربًا، وذلك لتفوُّق قواته الساحق في عدد الدبابات، إلا أن الخسائر الفادحة التي لحقت بقوات البانزر المدرعة الألمانية في معركة المدرعات الأخيرة عند تل العقاقير والتي بلغت نحو 360 دبابة دون أدنى أمل في استعاضة أي عدد منها كانت ضربة قاصمة للفيلق الأفريقي، وقضت تمامًا على أي أمل لدى روميل في إمكان الاحتفاظ بالخط الدفاعي للمحور عند العلمين، خاصة بعد نفاذ وحدات من السيارات المدرعة البريطانية من خلال دفاعات المحور يوم 2 نوفمبر، وتقدُّمها عبر الأرض المفتوحة إلى الضبعة، وبدء تهديدها لخط مواصلات المحور في السهل الساحلي.

وإزاء الموقف الحرج الذي أضحت عليه قوات المحور صمَّم روميل على ضرورة الانسحاب غربًا على وجه السرعة لإنقاذ قواته من التدمير، وكانت لا تزال أمامه الفرصة لسحب معظم قواته الألمانية.

أعمال قتال يوم 3 نوفمبر:

نجحت قوات المحور بالقطاعين الأوسط والجنوبي في الانسحاب قبل أول ضوء دون أن تشعر القوات البريطانية المواجهة لها قد بدأت في الانسحاب غربًا، وهي مترجلة، وجرَّت جميع أسلحتها الثقيلة بواسطة الأفراد لعدم تيسر العربات.

وعلى الرغم من اكتشاف البريطانيين لبدء انسحاب قوات المحور أثناء النهار فشلت الفرقة الأولى المدرعة في اكتساح ستارة نيران المدفعية المضادة للدبابات التي تقف حائلاً بينها وبين تقدُّمها على الرغم من الضغط المتواصل عليها طوال النهار، واضطر مونتجومري إلى تكليف أحد لواءات الفرقة 4 الهندية بالهجوم، وتطويق ستارة المدفعية من الجنوب، فتقدَّم هذا اللواء من مواقعه على تَبَّة المطرية مسافة 10كيم حتى خط بدء الهجوم، ونظراً للأتربة الناتجة عن تحرك عربات اللواء، وصعوبة الرؤية فقد اختلطت

المدقات على وحدات اللواء فَضَلَّ بعضها الطريق، ولم يصل إلى خط الابتداء للهجوم سوى كتيبة واحدة على الرغم من تأجيل ساعة بدء الهجوم لمدة ساعة كاملة.

وتمكَّن الآلاي 4 جنوب أفريقيا عربات مدرعة خلال هذه الفترة من التقدُّم إلى المناطق الخلفية لقوات المحور، وبدأ في مهاجمة خطوط مواصلاته ومستودعات تموينه.

وانتهز روميل فرصة فشل القوات المدرَّعة الرئيسية البريطانية في اختراق مواقعه، وسحب الكثير من الوحدات الآلية الإيطالية من القطاع الشمالي، إلا أن ذلك تسبب في تكدُّس الطريق الساحلي بمئات العربات المتجهة غربًا، وكانت فرصة لا تتكرر انتهزتها الطائرات البريطانية في الهجوم على تلك الأرتال لإيقاع أكبر قدر من الخسائر بها.

وفي الساعة 1330 يوم 3 نوفمبر وصلت إلى روميل برقية من هتلر نصها:

إلى الفيلد مارشال روميل: "إنني والشعب الألماني نثق في قيادتكم، وفي شجاعة القوات الألمانية الإيطالية التي تحت قيادتكم ثقة عمياء، ونتتبَّع قتالكم المجيد في مصر، إلا أنه ينبغي في الموقف الذي تواجهونه الآن ألا يتجه تفكيركم إلا للصمود، وعدم التخلي عن ياردة واحدة من الأرض، ويجب إلقاء كل مدفع وكل رجل في أتون المعركة إن كثيراً من الإمدادات الجوية في طريقها لتكون تحت تصرُّف القائد العام للقطاع الجنوبي[1]. هذا علاوة على أن القيادة العليا الإيطالية تبذل كل ما في وسعها لإمدادكم بكل ما يعاونكم على القتال. إن عدوكم رغم تفوقه قد وصل إلى آخر حد لطاقته، وقد لا تكون هذه هي المرة الأولى في التاريخ التي تتغلب فيها الإرادة القوية على عدد أكبر من الكتائب، أما عن قواتك فيمكنك أن تبين لها أنه لا طريق أمامها سوى النصر أو الموت".

"أودلف هتلر"

(1) يقصد الفيلد مارشال كيسلرنج الذي يقود القطاع الجنوبي للمحور في روما، والذي يتبعه روميل في ذلك الوقت.

أسر قائد الفيلق الألماني

بعد وصول برقية هتلر وجد روميل نفسه بين نارين، فقد كان على يقين من أن ما ورد بالبرقية هو أمر يدعو للسخرية، وأن تنفيذه لابد أن يؤدي إلى كارثة محققَّة، ولكن التعليمات الصريحة التي تضمنتها البرقية أشعرته أنه من الخطر التغاضي عنها حتى لا يثير ثائرة هتلر ضده، وبرغم نصيحة مساعده الجنرال بايرلين بوجوب تجاهل هذه التعليمات البعيدة تمامًا عن المنطق والحكمة فإن روميل بحكم الانضباط المتأصَّل في أعماقه أمر بتوزيعها على جميع الوحدات، وكان الجنرال فون توما الذي تولَّى قيادة الفيلق الأفريقي الألماني بعد وفاة الجنرال ستيوم ـ نظرًا لأن روميل أصبح يتولى بصفة رسمية القيادة العامة لقوات المحور التي كان يتولاها من قبل بحكم الأمر الواقع ـ قد تقدَّم ليطلب من روميل السماح له بالانسحاب من منطقة العلمين إلى موقع جديد في الغرب في منطقة فوكة والضبعة (على بعد حوالي 65كم غرب العلمين)، وإزاء ما ورد ببرقية هتلر رفض روميل الموافقة على مطلبه.

ولكن فون توما إزاء تعرُّض قواته للإبادة أو لخطر الوقوع في الأسر لم يكترث بالتعليمات الصادرة إليه، وقام بسحب قواته خلال الليل وتحت ستر الظلام إلى مواقعها الجديدة، وواجه قائده روميل قائلاً: "لا يمكنني إطاعة هذا الأمر الذي أصدره هتلر"، وأصمَّ روميل أذانه عما سمعه من مرؤوسه، ولم يجبه بكلمة واحدة، فقد كان واثقًا في قرارة نفسه أنه لم يفعل سوى الصواب.

ولا شك في أن الفضل الأكبر في منع القوات المدرعة البريطانية من التقدُّم غربًا لتطويق قوات الفيلق الأفريقي بعد معركة المدرعات الكبرى في تل العقاقير يوم 2 نوفمبر، مما كان سيتيح لها الفرصة لتدمير هذا الفيلق ذي التاريخ المجيد وأسر معظم أفراده إنما يرجع إلى الستارة الألمانية المضادة للدبابات التي وضعها روميل عند مدخل درب سيدي عبد الرحمن، وأمرها بالاستماتة في أمكنتها، ولم تكن تتكون سوى من 25

مدفعًا مضادًّا للدبابات من عيار 88مم، وعدد آخر من المدافع المضادة من عيار 50مم، وبرغم قوة الستارة الألمانية المحدودة بالمقارنة بالقوات المدرعة البريطانية التي كان لديها التفوق الساحق في العدد وفي قوة النيران فإن أفراد الستارة الألمان نجحوا بفضل شجاعتهم ومقاومتهم العنيدة في منع القوات المدرعة البريطانية من اختراق موقعهم، والتقدم غربًا لمدة يومين كاملين، ولم يتخلوا عن موقعهم إلا يوم 4 نوفمبر بعد أن تم لقوة بريطانية تطويقهم، فسارعوا بالانسحاب، ولكن لاتخاذ موقع جديد لحماية الطريق الساحلي الذي أصبح المحور الرئيسي لانسحاب قوات الفيلق الأفريقي الألماني في اتجاه الغرب، وبذا ضربوا أروع الأمثلة في الشجاعة والإصرار على أداء الواجب مهما كلفهم ذلك من تضحية.

وفي مركز قيادة روميل أفادت تقارير الاستطلاع الذي وصلته أن قوات مدرَّعة بريطانية قد اخترقت المواقع الدفاعية الألمانية في الجنوب، وأنها أصبحت غرب هذه المواقع، ولم يصدق روميل في بادئ الأمر هذه الأنباء المزعجة، ولذا سارع الجنرال فون توما بالتحرَّك بدبابته إلى أحد المواقع الألمانية المتقدمة؛ ليتأكد بنفسه من صحة هذا النبأ الخطير، وعند الظهر ـ ولم تكن قد وردت أي أنباء عن فون توما ـ تحرَّك الجنرال باير لاين بعربة قيادته للبحث عنه وعندما اقترب من موقع (تل المنسر) أرغمته كثافة نيران المدفعية البريطانية على ترك عربته، والاتجاه إلى التل على قدميه، وعندما أصبح على مسافة 200متر شاهد منظرًا أثار فزعه، فقد رأى الجنرال فون توما واقفًا بجوار دبابته المحترقة، بينما الدبابات البريطانية تحيط به من كل جانب (كانت هذه الدبابات من الفرقة 10 المدرعة الهوسارز) في الوقت الذي كانت فيه الدبابات والمدافع المضادة الألمانية بالموقع قد تم تدميرها، وبقى بايرلاين ساكنًا داخل الحفرة التي اختبأ فيها حتى رأى مجموعة من الحمّالات المدرعة البريطانية تتقدم نحو التل، وتحمل فون توما معها، وسارع بايرلاين بالعودة إلى مركز القيادة قبل أن يلاحظه أحد من الأعداء.

وعندما وصل باير لاين إلى مركز القيادة جنوب (الضبعة) استمع هو وروميل إلى قادة وحدات الفرقة 10 الهوسارز، وهم يتحدثون مع بعضهم البعض في اللاسلكي عن نجاح فرقتهم في أسر جنرال ألماني، وفي مساء اليوم نفسه تناول الجنرال الأسير فون توما قائد الفيلق الأفريقي طعام العشاء في ميس (مطعم) القيادة البريطانية مع الجنرال مونتجومري بدعوة من القائد البريطاني، وقد استمرت الصلات الودية بين هذين القائدين قائمة إلى الحد الذي جعل فون توما يوجه الدعوة إلى مونتجومري لزيارته في ألمانيا بعد انتهاء الحرب، وقد قوبلت هذه المجاملات المتبادلة بالانتقاد من بعض المسئولين في بريطانيا برغم ما كانت تتضمنه من نبل المشاعر وحسن المعاملة التي أبداها قائد منتصر لخصمه المهزوم الذي وقع في أسره في ميدان القتال، وهي تُذكِّرنا بروح الفروسية التي كان يتصف بها القائد الإسلامي العظيم صلاح الدين، والتي كانت تظهر بوضوح في تسامحه، وحسن معاملته لأعدائه عند وقوعهم في الأسر؛ عملاً بآداب الحرب في الشريعة الإسلامية.

أبرع عملية انسحاب في تاريخ حرب الصحراء

في الصباح التالي كان الجنرال باير لاين مساعد روميل قد تولَّى المنصب الذي كان من قبل محط أحلامه، وهو قيادة الفيلق الأفريقي الألماني، وذلك بعد أسر الجنرال فون توما، ولكن سوء حال الفيلق في هذا الوقت والمصير الخطير الذي كان ينتظره لم يشعراه بأي نوع من البهجة، ولذا بادر بتوجيه السؤال عن الموضوع الذي أثار حيرته إلى روميل: "ماذا يمكن أن أفعل إزاء ذلك الأمر الصادر من هتلر؟"، فرد عليه روميل بأسلوب دبلوماسي لم يكن معتاداً عليه من قبل: "أنا لن أستطيع أن أصرح لك بمخالفة الأمر، ولكن ليس هناك مجال للسؤال عن إطاعته إذا تعارض ذلك مع إنقاذ أفراد من قوتك".

وعلى الرغم من صدمة الهزيمة التي تلقَّاها روميل، والتي واكبت ذروة مرضه

ومعاناته، مما جعله يبدو كرجل محطم، وبرغم أن ضباط الأركان في مركز قيادته كانوا يجدون صعوبة لم يعتادوها من قبل في التعامل معه فإن الوقائع أثبتت أنه قد مارس عملية الانسحاب بمهارة لم يُسبق لها مثيل، خاصة أنه لم يعد لديه أي أمل في وقف مطارديه، والقيام بعمليات هجومية ضدهم لتمزيق صفوفهم، وتدمير قواتهم المدرعة مثلما كان يفعل في معاركه السابقة؛ إذ كانت قوته الباقية تُقَدَّر بما يزيد قليلاً على حجم فرقة مختلطة، ولم يكن قد تبقى من الدبابات لديه سوى 80 دبابة ألمانية في مواجهة حوالي 600 دبابة بريطانية.

وقد ذكرت المصادر البريطانية أنه لولا سقوط أمطار غزيرة ليلة 6 نوفمبر مما حوَّل الصحراء إلى مستنقعات، وأدى إلى تعطُّل قوافل التموين، وإرغام الفرق المدرعة البريطانية المكلفة بالمطاردة على التوقف، وبالتالي فشلها في قطع خط الرجعة على القوات الألمانية لكان قد تم تطويق روميل وفيلقه الألماني في مرسى مطروح، كما ذكرت هذه المصادر أنه لو كان سلاح الطيران البريطاني لديه الخبرة والإمكانات في هذا الوقت للقيام بتكتيكات اكتساح الأرضي للقوات البرية باستخدام الرشاشات مثل التي أحرزها فيما بعد لما أمكن لروميل التقدُّم كل هذه المسافة الشاسعة بقواته دون خسائر تُذكرَ، وأكدت المصادر البريطانية أيضًا أنه لو كان النقل الجوي قد تم تطويره بالأسلوب الذي طوَّره به فيما بعد الجنرال سليم (رئيس أركان حرب الإمبراطورية البريطانية في بداية الخمسينيات) في ظروف أشق كثيراً من تلك التي جرت مع روميل، وكان ذلك في أثناء العمليات الحربية في بورما لكان في الإمكان القيام بعملية إنزال من الجو لقوات بريطانية تامة التجهيز والتسليح يتم تموينها عن طريق الجو خلف مواقع روميل؛ لقطع خط رجعته، والقضاء على قواته.

وفضلاً عن ذلك وُجِّهَت انتقادات حادة للجنرال مونتجومري، سواء من جانب المحللين العسكريين البريطانيين، أم من الأجانب؛ بسبب حذره الزائد عن الحد عند

مطاردته لقوات روميل، وكانت حجتهم في ذلك أن قوات روميل سبق أن تلقَّت هزيمة ساحقة في معركة العلمين، وأصبح روميل في موقف لا يستطيع معه القيام بهجوم مضاد بنفس الأسلوب الذي اتَّبعه بنجاح في الماضي ضد الجنرال ويفل وضد الجنرال أوكنلك؛ إذ إنه في هاتين المرتين كان روميل ينسحب من تلقاء نفسه، ودون أن يتلقَّى هزيمة ساحقة، وكان يستهدف من انسحابه أن يعاود الكره عندما تطول خطوط المواصلات البريطانية، وبالتالي تصبح قوات الجيش الثامن في المنطقة الأمامية ضعيفة بحيث لا تستطيع تحمُّل صدمة الهجوم المضاد الذي كان روميل يحشد لضمان نجاحه أفضل الفرق المدرعة الألمانية (البانزر)، كما كان يعد في مهارة ودهاء، وفي مواقع منتخبة جيداً ستائره الشهيرة المضادة للدبابات المشكلة من المدافع من عيار 88مم، وهو الأمر الذي أدى إلى تدمير القوات المدرعة البريطانية بأكملها في معركة الغزالة في برقة يوم 13 يونيو 1942، وتسبَّب في انسحاب الجيش الثامن في أسوأ حالة من الذعر والفوضى إلى خط العلمين كما أسلفنا.

نزول الحلفاء في شمال أفريقيا

في 5 نوفمبر بدأ الجيش الثامن البريطاني عملية مطاردة قوات المحور المنسحَبَة في اتجاه الغرب، ولم يحاول روميل طوال المسافة من العلمين إلى بني غازي في ليبيا والتي تزيد على 1000كم التوقُّف بقواته في أي موقع للدخول في معركة حاسمة مع قوات مونتجومري، وكان روميل يستهدف من وراء انسحابه لأطول مسافة ممكنة تقصير خطوط مواصلاته مع قاعدته الرئيسية في طرابلس في الوقت الذي تطول فيه خطوط مواصلات الجيش الثامن مع قواعده الرئيسية في مصر، وبذا قد تتاح الفرصة لروميل للقيام بهجوم مضاد قوي يوقف بواسطته تقدُّم الجيش الثامن في برقة، ويجبره على الانسحاب إلى ما وراء الحدود المصرية.

وقد سبق لروميل ممارسة هذه التكتيكات الفذة، وطرد الجيش الثامن من برقة مرتين

خلال حرب الصحراء، ففي المرة الأولى تمكَّن من هزيمة الجيش الثامن في معركة (باتل آكس) في برقة في منتصف يونيو 1941، مما أدى إلى انسحاب هذا الجيش إلى ما وراء الحدود المصرية، وتمَّ بعد أسبوعين من المعركة استبعاد الجنرال أرشيبالد ويفل من منصبه كقائد عام للقوات البريطانية في الشرق الأوسط، وتعيين الجنرال كلود أوكنلك مكانه، وفي المرة الثانية أمكن لروميل أيضًا هزيمة الجيش الثامن في معركة الغزالة في برقة بعد عام كامل من المرة الأولى، وكان ذلك في 13 يونيو 1942، مما أدى إلى انسحابه السريع المذعور إلى خط العلمين، وفي ظروف تكاد تكون مشابهة لما حدث من قبل تم استبعاد الجنرال أوكنلك من منصبه بعد شهرين من المعركة، وتعيين الجنرال هارولد ألكسندر قائداً عامًا للقوات البريطانية في الشرق الأوسط، وتعيين الجنرال برنارد مونتجومري قائداً للجيش الثامن.

ولكن الظروف في هذه المرة كانت مختلفة تمامًا عن سابقتها، ففضلاً عن الهزيمة المريرة التي تلقَّاها روميل في معركة العلمين، والتي تسبَّبت في تدمير معظم قواته المدرعة التي تعد سلاحه الرئيسي في هجماته المضادة قام الحلفاء في 8 نوفمبر 1942 بعملية إنزال كبرى لقوات أمريكية وبريطانية على شواطئ المغرب والجزائر بقيادة الجنرال أيزنهاور، وأخذت هذه القوات في التقدَّم بسرعة في اتجاه الشرق، مما أصبح معه خط مواصلات روميل مع قاعدته الرئيسية في طرابلس مهدَّدًا بالقطع.

وكان أشد ما أثار غضب روميل ومرارته تلك المقارنة التي عقدها بين موقف القيادة العليا الألمانية بعد انتصاره المذهل في معركة الغزالة في 13 يونيو 1942 التي أمكنه خلالها تدمير الجيش الثامن، وإجباره على الانسحاب إلى خط العلمين، فقد ضنَّت عليه وقتئذ بالإمدادات القليلة التي طلبها، والتي كانت تتيح له الفرصة ـ في حالة قدومها ـ لمواصلة زحفه الظافر إلى الإسكندرية، ثم احتلال مصر، وطرد الجيش البريطاني منها، مما كان كفيلاً بتغيير مجرى الحرب في الشرق الأوسط، وبين موقف هذه القيادة العليا من جهة

عملية حربية من المؤكد خسارتها في تونس بعد نزول هذه القوات الضخمة للحلفاء في المغرب والجزائر، واتجاه زحفها شرقًا إلى تونس، ففي حين توقَّفت هذه القيادة عن معاونة روميل في عملية حربية بهرت العالم وقتئذ بروعتها إلى درجة جعلت ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا لا يتمالك مشاعره، فيشيد ببراعة القائد الألماني الذي هزم جيشه، ويصفه في خطابه للشعب البريطاني بأنه قائد عظيم. . . نرى هذه القيادة نفسها تسارع بمؤازرة عملية حربية محكوم عليها مقدمًا بالفشل، وتواصل إمدادها عن طريقي الجو والبحر طوال الشهور الستة التي استغرقتها في تونس بسيل متدفق من القوات والأسلحة والمعدات برغم الظروف المعاكسة لعمليات النقل الجوي، بسبب التفوق الذي أحرزته القوات الجوية للحلفاء، خاصة بعد استيلائها على المطارات في المغرب والجزائر، وكذا برغم الظروف المعرقلة لعمليات النقل البحري، بسبب نشاط أساطيل الحلفاء في المنطقة الوسطى من البحر المتوسط، وتَحكُّمها في منطقة المضيق الذي يفصل ما بين جنوب إيطاليا وجزيرة صقلية شمالاً وشاطئ تونس جنوبًا، ولو كانت القيادة الألمانية العليا قد أمدَّت روميل أثناء زحفه إلى العلمين بنصف هذه القوات التي أرسلتها إلى تونس والتي سرعان ما فقدتها بعد بضعة أشهر؛ بسبب مصرع وإصابة الآلاف من أفرادها، ثم وقوع الباقين كلهم في الأسر بعد اضطرارهم إلى التسليم لقوات الحلفاء لكانت معظم بلاد الشرق الأوسط قد وقعت في قبضة قوات البانزر الألمانية التي كان روميل يتولى قيادتها بحنكة وبراعة أدهشت العالم، ولكان وجه التاريخ قد تغيَّر بلا شك.